ثم التفت الاستاذ مرغوليوث الى قوله سنّة متبعة فقال هل المراد بذلك الاحاديث النبوية او سنن العرب قبل الاسلام التي اشير اليها في التحكيم بين الامام علي ومعاوية « بالسنّة العادلة الجامعة غير المفرقة » على ما في الطبري . وقد جاء في ابن الاثير في هذا الصدد ما نصهُ «ان كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته نحيي ما احيا ونميت ما اماث فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما ابو موسى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص عملا بهِ وما لم يجداهُ في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . » ومعلوم ان الاحاديث النبوية لم تكن قد جمعت حينئذٍ لان السنة كانت سنة ٣٧ للهجرة فالاوجه ان تكون الاشارة الى سنن العرب

وكتاب الامام عمر هذا من ابلغ الكتب واجمعها لاحكام القضاة سواء ثبتت نسبتهُ اليهِ او لم تثبت وسواء كان في اصلهِ وصايا شفاهية او رسالة مكتوبة

حرب القرم

اسبابها ونتائجها

(١)

اذا كلَّ عضب الدماغ من الشغل العقلي ولم يجد المرء الى البطالة سبيلاً فلا افضل من كتاب تاريخي يشغل بهِ . هذا كان شأن السر والكتاب تاريخ روسيا للسيو لوندر وكيل نظارة الخارجية الفرنسوية والفصل حرب القرم

التاريخ مسهب مفصّل لكن القارئ لا يملُّ ولاسيما اذا كان مثلنا يبحث عن الاسباب والنتائج — عن الاغراض التي يتوخاها الملوك ورجال السياسة من وراء الحروب والمجازر وما يترتب على اعمالهم من صلاح وفساد . الاسباب والنتائج — لاي علة تجود مملكة مثل فرنسا بثمانين الفاً من نخبة رجالها وقوادها وابطالها و بثمانمليون من الجنيهات . لاي غرض تجود انكلترا بعشرين الفاً من زهرة ابنائها وخيرة اعيانها وخمسين مليوناً من الجنيهات . ان قيل ان روسيا ضحّت مئة الف من جنودها وتركيا مئة الف اخرى فالاولى كانت جارية على مشيئة رجل واحد تصوّر امراً فسعى اليهِ والثانية كانت مدفوعة الى حفظ كيانها والذود عن حوضها ولكن ما فائدة فرنسا وانكلترا وسردينيا . نترك التعليل الى بعد سرد الحوادث وهي فصل لا يجفى من تاريخ الانسان وان كانت الامم لم تستفد منهُ حتى الآن فيكون لكل في ادمغتها افقدها الشعور او منعها عن اكتشاف العلل في المعلولات والاسباب في النتائج

استعزّت دولة الروس في زمن بطرس الكبير وكاترينا وحنة واسكندر الاول وصار لها شأن عظيم وكلمة نافذة في بلاد آل عثمان وورث الامبراطور نقولا الاول هذا المجد وهذا السلطان وزاده شأناً في السنين الاولى من ملكه ولم يكن اسهل عليه من الاحتفاظ بما ورثهُ وبما زادهُ فيه لو سار بالتأني والتؤدة الى آخر ايامه واغتنم الفرص السوانح لكنهُ كان لجوجاً والمجاجة عاقبتها الندامة وكأنّ فوزهُ في سياستهِ الادبية في بولونيا والنمسا اسكرهُ فاستسهل كل صعب

خطر لهُ ان البلاد العثمانية على شفا جرف هارٍ وان يوم انحلالها قد دنا وخاف ان تغتنم دول اوربا على اقتسام اصلابها او تمنعهُ من اخذ السهم الاكبر من الغنيمة فحدثتهُ نفسهُ ان يأخذ الاهبة لذلك بالاتفاق مع انكلترا . وهمٌ فاسد ولكنهُ تمكّن منهُ ورأي فاتن ولكنهُ استواءهُ حتى لم يتالك ان فاتح بهِ سفير انكلترا في بطرس برج . التقى بالسفير السر جورج هملتون سيمور في ليلة حافلة احيتها الاميرة هيلانة وتكلّم معهُ عن الوزارة الانكليزية الجديدة وكلّفهُ ان يبلغها تهانيهِ الخالصة ولاسيما لورد ابردين الذي كان يعرفهُ منذ نحو اربعين سنة . ثم قال « انت تعلم مودتي لانكلترا . ولا بدَّ لها ولي ان تكون على تمام الوئام . ولم تكن الحال ادعى الى اتفاقنا منها الآن . ابلغ ذلك لورد جون رسل فانا اذا اتفقنا لا اعود اعنى بغربي اوربا ولا اهتم بما يقولهُ الناس . واما تركيا فلها شأن آخر لان حالتها لا تدعو الى الاطمئنان وقد تكون سبباً لمشاكل »

قال ذلك وقطع الحديث بغتةً وهمّ بالمسير . الاَّ ان السفير رأى الموضوع هامًّا وخاف ان لا تحين لهُ فرصة اخرى للوقوف على آراء القيصر فيهِ فتوصل اليهِ ان يزيل ما خامر نفسهُ من الريب عن تركيا . فتوقّف القيصر في اول الامر كأنهُ لم يشأ ان ينتقل من التعميم الى التخصيص ثم بدا لهُ ما غيّر رأيهُ بغتةً وقال « لدينا الآن رجل مريض مدنف فاذا قضى نحبهُ قبل ان تأخذ الاهبة فقد تقع في مشاكل كبيرة ولكن هذا الوقت لا يصلح للبحث في هذا الموضوع »

وبعد خمسة ايام قال وزير روسيا الكونت نسلرود للسفير ان القيصر يرغب في مقابلتهِ . فمضى السفير الى القصر حالاً فوجد القيصر وحدهُ في انتظارهِ ولما استقرَّ به الجلوس قال لهُ القيصر « انك تعلم اماني الامبراطورة كاترينا التي كانت تمنّي نفسها بها . اما انا فقد ورثت من اسلافي ملكاً واسعاً ولكنني لم ارث معهُ تلك الآماني وان شئت فقل تلك المقاصد لان مملكتي واسعة جدًّا وانا حاصل من فضل المولى على كل ما ابتغي فلا اطمع بسعة في الملك ولا

بسطة في العيش ولا بزيادة في القوة بل ان الخطر الاعظم او الخطر الوحيد الذي نخشاه هو اتساع ملكنا فوق ما يلزم . وتركيا على تخومنا ولا شيء اصلح لنا من ذلك وقد مضى الوقت الذي كنا نخشى فيه منها وهي لا تزال قادرة ان تحفظ استقلالها واحترام الدول لها

« وفي السلطنة العثمانية ملايين كثيرة من المسيحيين الذين يهمني امرهم . والمعاهدات تخولني حمايتهم وانا غير مفرط في استعمال هذا الحق بل اني على غاية الاعتدال فيه ولا اخفي عليك اني لا اراه سهلاً ولكني لا استطيع ان اتقاضى عنه واهمله فان الديانة التي ندين بها جاءتنا من الشرق وهناك عواطف ومطالب لا يمكن الاغضاء عنها

« ولكن السلطنة العثمانية قد انحطت كثيراً حتى مهما حاولنا ان نطيل حياتها — وارجو ان تصدقني اني اود البقاء لها كما تودونه انتم — قد لقضي اجلها فجأة وحينئذٍ يقضي الامر افلا يليق بنا ان نستعد لذلك لئلا نفاجأ به مفاجأة ونخوض غمار حرب اوربية . هذا هو الامر الذي اود ان تحول التفات دولتك اليه »

فاجابه السفير ان الدولة العثمانية وقعت في ازم اشد من ازمتها الحاضرة ثم نجت منها وان انكلترا لا تود ان تشترك في تدابير مثل هذه بل يقبح بالمرء ان يفكر في قسمة تركة صديقه وصديقه في قيد الحياة

فقال القيصر « ان المبدأ شريف لذاته ولاسيما في اوقات لا يعلم ما تؤدي اليه مثل الاوقات الحاضرة ولكن يهمنا جداً ان يقف كل واحد منا على فكر غيره ولا نؤخذ على غرة والآن اخاطبك كصديق وكرجل نبيل واقول لك اني اذا اتفقت انا وانكلترا فلا يهمني بعد ذلك ما يقوله الناس وينقولونه ولذلك اقول لك صريحاً انه اذا شاءت انكلترا يوماً ما ان تأخذ القسطنطينية فاني اصدها عن ذلك ولا اقول انكم قاصدون هذا ولكن يجب على الانسان ان يجاهر برأيه وانا اتعهد بانني غير قاصد امتلاك القسطنطينية ولكنني قد احتلها كحارس لها واذا لم تؤخذ الاهبة من الآن وتركت الامور للتقادير فقد اضطر الى احتلالها اضطراراً »

وهذه الاقوال التي صرح بها القيصر على غرابتها كانت معروفة لدى الدولة الانكليزية فانه لما زار انكلترا سنة ١٨٤٤ ذاكر دوق ولنتون ولورد ابردين واللورد رويرت پيل في المسألة الشرقية وأدمجت آراؤه في مذكرة كتبها وزيره اكرنت نسرود وارسلها الى لندن فوضعت بين السجلات السرية في نظارة الخارجية

فلما أرسل السر هملتون سيمور سفير انكلترا الى حكومته ما سمعه منه في هذه المقابلة

كتب لورد جون رسل اليه يهنئه القيصر على مجاهرته بآرائه واعتداله فيها واظهاره الصداقة لانكلترا ولكنه قال ان الاتفاق على اقتسام السلطنة العثمانية يسرع انحلالها. وخير سياسة يتبعها القيصر هي السياسة التي تبعها حتى الآن والتي ستجعل اسمه امجد من اسم اعظم الملوك الذين طلبوا تخليد الذكر الحسن بحروب لا داعي لها والسعي وراء مجد زائل. ثم لصح للقيصر ان يعامل الحكومة العثمانية بالتين والتؤدة ويداكرها حبًّا لازالة ما يقع من الخلاف بينه وبينها

ويظهر مما كتبه لورد رسل ان حكومة القيصر وحكومة الانكليز كانتا على طرفي نقيض من جهة الدولة العثمانية لان الحكومة الانكليزية لم ترد ان تشترك مع روسيا في محالفة ما ولا كانت تعتقد ان الدولة العثمانية في خطر مبين

وابلغ السفير جواب لورد رسل للكونت نسلرود وقال له انه عازم على ان يرسل صورة منه الى القيصر. والتقى به القيصر في المساء وقال له بلغني انه وصلك جواب حكومتك وانك عازم ان تأتيني به غداً فقال السفير نعم يا مولاي ولكن الجواب مثل ما لخصت جلالتكم في كلامي معكم. فقال القيصر هذا الذي بلغني ولكن يظهر لي ان حكومتكم لم تفهم مرادي فانه لا يهمني ان اعلم ما يجب فعله حينما يقضي الامر بل يهمني ان اتفق مع انكلترا على ما يجب منعه

وفي اليوم التالي جاء السفير برسالة لورد رسل وقرأها للقيصر فاظهر القيصر اسفه لان الحكومة الانكليزية لم تجبه صراحةً عن السؤال الذي سأله وهو ما يجب تلافيه اذا حدث ما حدث. فقال له السفير جدنا لو اخبرتمونا جلالتكم بما يجب تلافيه حينئذٍ. فتردد القيصر في الجواب ثم قال «ان هناك اموراً كثيرة لا اسلم بها اما من جهتنا فاني لا اريد ان يكون احتلالنا للاستانة دائمًا ولا اريد ان تحتلها انكلترا ولا فرنسا ولا دولة اخرى من الدول الكبرى ولا اسلم باعادة الدولة البزنطية ولا بتقوية اليونان حتى تصير دولة قوية ولا بتقسيم تركيا الى جمهوريات صغيرة تكون ملجأ لاناس مثل كوسوث ومازيني ونحوهما من الثوار واني افضل ان اخوض غمار الحرب على ان يحدث شيء من ذلك»

اما السفير فعاد الى مثل كلامه الاول وهو ان مساعدة تركيا على اصلاحها خير من البحث في ما يجب عمله لو سقطت. وعاد القيصر الى الكلام فقال ان فرنسا قاصدة تونس وانه هو وعد السلطان ان ينصره عليها ان تهددته. فقال له السفير يظهر ان جلالتكم نسيتم النمسا فلم تشيروا اليها بكلمة مع ان المسائل الشرقية تهمها جدًّا وهي تنتظر طبعًا ان تُستشار فيها. فقال له القيصر ليكن معلومًا لك اني حينما اتكلم عن روسيا اتكلم عن النمسا ايضًا لان مصلحتهما واحدة

وعاد الى الكلام على تقسيم الممالك العثمانية فقال « ان امارات الدانيوب حكومات مستقلة فعلاً ومستقبل السرب والبلغار خطوانها - اما مصر فانا اعلم اهميتها لانكلترا فحينما تقسم الممالك العثمانية تكون مصر لكم فلا اعارضكم فيها ولكم ان تأخذوا كريت ايضاً فانها قد تكون لازمة لكم ولا ارى ما يمنع امتلاككم اياها »

فقال له السفير « ان كل ما تريده من مصر لا يتعدى ان يكون طريق الاتصال بيننا وبين الهند اميناً » . لكن القيصر لم يكتف بذلك بل طلب منهُ ان يجعل حكومتهُ تكتب لهُ في هذه المسألة بالتفصيل التام قائلاً اني لا اطلب معاهدة ولا ضمانًا بل كلاماً بسيطاً مبادلة افكار

ثم كتب وزير روسيا مذكرةً في هذا الموضوع احتوى فيها تمام الاحتراس وقال ان كلام القيصر مع السفير ليس لهُ صفة رسمية بل هو مجرَّد آراء ابداها شفاهاً

وفي تلك الاثناء جعل لورد كلارندن وزيراً للخارجية بدل لورد جون رسل فكتب الى سفير حكومته في بطرس برج مؤيداً ما قالهُ القيصر من ان الحكومة الانكليزية لا ترى موجباً للقلق على سلامة تركيا وانها مسرورة لان القيصر يحسب ان سلامة تركيا تهمهُ اكثر مما تهمُّ انكلترا ولذلك فعلى سياستهِ مع تركيا يتوقف منع ما تود كل دولة من دول اوربا منعهُ . ولا شيءٌ يدعو الى حدوث ما يراد منعهُ مثل التكهن المستمر بقرب حدوثهِ . ولا شيءٌ يضر بسلامة تركيا مثل الاعتقاد بانها قريبة الانحلال فاذا ذاع وشاع اعتقاد القيصر بان ايام تركيا صارت معدودة فذلك مما يعجل انحلالها . الى ان قال ان انكلترا لا تسلم بان تحتل القسطنطينية دولة من الدول الكبيرة وعندما ان اعادة الامبراطورية البيزنطية ضرب من المحال . وسيره الادارة في بلاد اليونان يمنع توسيع املاكها وانكلترا لا ترغب في توسيع املاكها ولا تشترك مع احد في ذلك ولا تشترك ايضاً في اتفاق يراد كتمانهُ عن بقية الدول مهما كان

وقد كتب لورد كلارندن مذكرتهُ هذه وارسلها قبلما وصلت اليهِ مذكرة وزير روسيا فلما وصلت اليهِ وجد انهُ قد اجاب عن كل ما فيها في مذكرتهِ التي ارسلها فلم يرَ موجباً لارسال مذكرة أخرى . وكان وزير روسيا يودُّ ايضاً اقفال هذا الباب فقال للسفير ان هذه الامور دقيقة جدًّا والبحث فيها صعب دائماً ثم اجاب بمذكرة وافق فيها على كل ما ذكرتهُ انكلترا وزاد عليها انهُ يجب معاملة الدولة العلية بالاحترام التام حينما تنبَّه الى ما يصيب المسيحيين من الاضطهاد في بلادها

ولم يمضِ على هذه الرسالة ثلاثة ايام حتى شكا القيصر الى السفير من امور حدثت في القدس

وقال ان الدولة العثمانية اهانته وانها ان لم ترجع الى صوابها من نفسها فهو يعرف كيف يرجعها اليه

وحدث بعد ذلك ان المورد جون رسل خطب في مجلس النواب وذكر شيئاً اغاظ روسيا فنشرت جريدة بطرس برج مقالة اشارت فيها الى المخابرات السابقة بين روسيا وانكلترا ولامت انكلترا لانها لا تثق بروسيا بعد كل ما ابدته لها روسيا من ادلة الاخلاص فنشرت نظارة الخارجية الانكليزية المخابرات التي دارت بين الحكومتين فدهش الناس من ذلك

(٢)

لما رأى القيصر ان انكلترا ليست من رأيه عدل الى امر آخر وهو استمالة الدولة العلية او ارهابها بالاكثر فعيّن سفيراً لهُ في الاستانة اميراً من كبار امراء الروس وهو البرنس منشيكوف الذي كان وزيراً للبحرية وحاكماً لنيقولايف بجاه القسطنطينية بابهة عظيمة واستعرض في طريقه الجيوش الروسية قرب اودسا والعمارة البحرية في سفستوبول وكان دخوله الاستانة كدخول قائد عظيم لا كدخول سفير سياسي . كان في حاشيته رئيس امراء كونيلوف والبرنس غالتسوين والكونت ديتري فسلرود وغيرهم من ياوران القيصر وقواد جيشه

والقواعد الرسمية تقضي بان السفير يزور اولاً الصدر الاعظم ووزير الخارجية . فزار البرنس منشيكوف الباب العالي حسب الاصول ولكنهُ جاءهُ بالباس العادي لا بالباس الرسمي فعدَّ ذلك منهُ اهانةً للباب العالي . ولم يكتف بذلك بل اقتصر على زيارة الصدر الاعظم ولم يزر وزير الخارجية مع ان وزير الخارجية ورجالهُ كانوا في انتظاره هناك فاستغرب الجميع هذا الفعل غاية الاستغراب ولم يعرفوا كيف يؤوّلونهُ . وفي اليوم التالي كتب الى الصدر الاعظم يقول انهُ لم يقصد اهانة الحكومة العثمانية ولكنهُ كان يستحيل عليه ان يحترم وزيراً غير صادق

ولو حدث هذا الامر في زمن السلطان محمود لزجَّ السفير في سجن الابراج السبعة وشهر الحرب على روسيا ولكن الحال كانت قد تغيرت حينئذٍ فما كان من وزير الخارجية الاَّ انهُ استعفى من منصبه وخلفهُ رفعت باشا فلم يكتفِ السفير بذلك . واتفق ان سفير انكلترا وسفير فرنسا كانا غائبين فذهب الصدر الاعظم الى السفارتين واستشار وكيليها واندرها بالخطر الذي يتهدَّد الدولة العلية لان العمارة الروسية كانت قرب قرن الذهب وطلب منهما ان يستدعيا العمارة الانكليزية والعمارة الفرنسوية ولو الى ازمير . فكتب وكيل انكلترا الى حكومته ان الجيوش الروسية صارت على شفوم تركيا وان روسيا آخذة في التأهب للزحف على بلاد الدولة

العلية . ثم ارسل الى امير العمارة الانكليزية يأتي بها من مياه مالطة الى الارخبيل الرومي . وكتب وكيل السفارة الفرنسوية الى حكومته كما كتب وكيل السفارة الانكليزية الى حكومته ولكنه لم يجسر على اقتحام العمارة الفرنسوية . وجرت الحكومة الانكليزية والحكومة الفرنسوية على ضد ما فعله وكيلاها فان انكلترا منعت عمارتها من مغادرة مالطة وفرنسا امرت عمارتها ان تذهب الى المياه العثمانية . واسرع السفيران الى الاستانة

وكتب وزير روسيا الى سفيرها في لندن ينفي الاشاعات التي شاعت في الاستانة عن مقاصد روسيا ويكرر ما اكده القيصر لسفير انكلترا شفاهاً وكتابةً من انه لا ينوي لتركيا اقل شر ويقول له ان يشكر لورد ابردين ولورد كلارندن عن لسان القيصر لانهما لم يصدقا هذه الاشاعات ولم يجريا مجرى فرنسا التي اعربت عن عدم ثقتها لانه لو فعلت انكلترا فعل فرنسا وارسلت اسطولها مثلها لتعذر رحيل المشاكل في الاستانة اما وقد توقف الاسطول الانكليزي عن المجيء الى المياه العثمانية فلم يعد لمجيء الاسطول الفرنسوي شأن كبير

ولقد كان سفير فرنسا يوجس خوفاً من دخول الجيوش الروسية الى امارات الدانيوب وسفير انكلترا لا يحول عن اعتقاده ان روسيا لا تنوي لتركيا شراً اما الدوائر التجارية والمالية في لندن فلم تكن تشارك الحكومة في ثقتها بل كانت تنتظر الحرب او تتمناها

واعتزل البرنس منشيكوف اسبوعين ثم طلب زيارة رفعت باشا وزير الخارجية مشترطاً عليه ان يكتم كل ما يخبره به . ووصل سفير انكلترا وسفير فرنسا حينئذٍ الى الاستانة واقبل الوزراء عليهما يشكون ضيمهم اليهما ولم يطامعهما على كل ما جرى ولكن لم يصعب على سفيرين محنكين مثلهما ان يعرفا ما بدى وما اختفى . ورضي البرنس منشيكوف ان ينظر في بعض المسائل مع سفير فرنسا خلا في ثلاثة اسابيع مشكلاً من اصعب المشاكل التي عجز ساسة اوربا عن حلها وجاء الحل مرضياً لتركيا وروسيا وفرنسا وهو متعلق بالقدس الشريف . وظن حينئذٍ انه لم يبقَ مشكل آخر ولكن لم تمضِ ايام كثيرة حتى كتب البرنس منشيكوف الى الباب العالي يقول ان القيصر يود ان يتناسى الماضي ولا يطلب الا عزل وزير واحد لا يستحق الثقة والاسراع في انجاز الوعود ويطلب ايضاً الضمانات الكافية للمستقبل وان تكون رسمية قطعية مؤداها انه لا يحدث اقل اهانة للديانة التي يدين بها اكثر المسيحيين رعايا الباب العالي ورعايا روسيا والتي يدين بها القيصر نفسه . ولا يقبل الا بان توضع هذه الضمانات في معاهدة او شبه معاهدة . ولما لم يجب الى طلبه حالاً قدم طلباً آخر وجعله بلاغاً اخيراً وقال انه اذا لم يجب الى طلبه بعد خمسة ايام عدّ ذلك اهانة لدولته فيضطر الى امور يأباها

ثم طلب مقابلة الصدر الاعظم فاستعدّ الصدر لاستقباله بالاكرام الواجب اما هو فلم يذهب الى الباب العالي بل ذهب الى سراي چراغان الى السلطان نفسه فلم يستقبله السلطان بل امره ان يذهب ويقابل الوزراء ورأى الصدر الاعظم ووزير الخارجية ان سفير روسيا اهانهما بما فعل فاستقالا وعين رشيد باشا وزيراً للخارجية . فطلب منه البرنس منشيكوف ان يكتب له وعداً بسيطاً لا معاهدة ولا ما يشبه المعاهدة ونصّ له صورة الوعد واذا هو تعهد رسمي يعود على الحكومة العثمانية باكبر ضرر . ولما ابى رشيد باشا ان يوقع له ذلك الوعد كتب اليه ان العلاقات السياسية انقطعت بين تركيا وروسيا ثم ركب البحر ورجع من حيث اتى

ونشرت صورة البلاغ الاخير في بلاد الانكليز فهاجت لهُ الخواطر وقام المتاجرون بالحروب يثيرون رجال الحكومة فكتبت انكلترا الى سفيرها في الاستانة ان اسطول مالطة تحت امره

وكتب الكونت نسلرود وزير روسيا الى رشيد باشا وزير الخارجية يقول لهُ ان الجنود الروسية مؤلفة بقطع النظر لا لاجل الحرب بل للحصول على الضمانات الكافية التي مضى على روسيا سنتان وهي تطلبها ولم تنلها حتى الآن . وهذه الضمانات مذكورة في المذكرة التي سلمها البرنس منشيكوف لرشيد باشا فما عليهِ الآن يوقعها حالاً بعد مصادقة الحضرة السلطانية عليها ويرسلها الى البرنس منشيكوف في اودسا

ووصل خبر هذه الرسالة الى لندن في اليوم التالي بالتلغراف فأرسلت الاوامر حالاً الى الاسطول الانكليزي في مالطة ليقوم ويشترك مع الاسطول الفرنسوي

ولم تكن روسيا تنتظر ان تتفق انكلترا وفرنسا عليها ولم تجد في النمسا وبروسيا ما كانت تنتظرهُ من الولاء فما جزاء تفضلها عليهما . فبعث الكونت نسلرود منشوراً الى سفراء روسيا نشرتهُ جريدة بطرس برج مؤداهُ ان كل ما طلبهُ البرنس منشيكوف انما هو ضمانات الحقوق التي نالتها روسيا في معاهدة كاينارجي ومعاهدة ادرنه وليس في ذلك شيء جديد ولا شيء خارج عن المعقول ولا شيء مما لا تطلبهُ كل دولة اذا اصابها ما يضرها من دولة اخرى

وتوسط امبراطور النمسا في الامر فلم تجدِ وساطتهُ نفعاً وأُمرت الجنود الروسية باحتلال امارات الدانيوب ودخل البرنس كورتشاكوف بخارست . وارسل الكونت نسلرود حينئذٍ منشوراً يقول فيهِ ان روسيا اضطرت الى احتلال امارات الدانيوب على اثر مجيء الاسطول الانكليزي والاسطول الفرنسوي الى المياه العثمانية لموازنة القوة . واذن القيصر سفير

فرنسا مدة واقصى سفير انكلترا قصر نبوليون بذلك وعزم على اصلاح ذات البين وكان رشيد باشا قد اجاب على لائحة روسيا فاخذ نبوليون اللائحتين ووفق بينهما وكتب لائحة جديدة ارسلها الى لندن فوافقت الحكومة الانكليزية عليها فارسلت الى سفير فرنسا في روسيا ليسلمها للقيصر . وأرسلت نسخة منها الى امبراطور النمسا فوافق عليها ونسخة الى ملك بروسيا فوافق عليها ايضاً

وطلبت انكلترا من الباب العالي ان يطلق على رؤوس الاشهاد ان رعاياه المسيحيين مساوون لسائر رعاياه في حقوقهم لكي لا تبقى حجة لروسيا . واجتمع مندوبو الدول الاربع انكلترا وفرنسا والنمسا وبروسيا في مؤتمر عام في فينا وتذاكروا في لائحة نبوليون اي في التوفيق بين مطالب روسيا ومطالب تركيا واقروا عليها وعرضوها على القيصر فوافق عليها على شرط ان يوافق السلطان عليها ايضاً كما هي . ولما شاع ان القيصر وافق على قرار المؤتمر هنأ الناس بعضهم بعضاً وراجت سوق التجارة وارتفعت الاسعار . وحسب نبوليون انهُ فاز فوزاً مبيناً

اما الحكومة العثمانية فلم تلوها هذه الظواهر بل والت الاستعداد للحرب وجمعت الرديف ولما عرضت اللائحة التي اقرها مؤتمر الدول الاربع على الباب العالي رفضها اولاً ثم فحصها ثانية وقبلها ما عدا ثلاث فقرات منها وعلق عليها آراءهُ التي دعتهُ الى رفضها فاغتاظت دول اوربا من ذلك واسقط في يد رجال المؤتمر لانهم كانوا قد بذلوا اقصى جهدهم حتى يرضوا الدولتين تركيا وروسيا ويوفقوا بينهما ووزنوا كل كلمة وكل عبارة فجاء الاعتراض على قرارهم مخيباً لهم وقالوا ان لا حق لرجال الدولة العثمانية في الاعتراض على شيء ولا محل لخوفهم وايجامهم . وجعلت الدول الاربع تحاول اقناع الباب العالي ليسلم بقرار المؤتمر وحاولت النمسا اقناع القيصر ليسلم ببعض التغييرات في القرار ارضاء لتركيا فلم تفلح . الا ان سفير انكلترا في الاستانة لورد ستراتفرد ده ردكلف لم يحاول اقناع تركيا بقبول لائحة المؤتمر فبقيت متشبثة برأيها . وبعث انكونت نسلرود وزير روسيا الى الدول الاربع يقول ان التغييرات التي تطلبها تركيا في اللائحة اما انها جوهرية فيجب رفضها او غير جوهرية فلماذا يعلق الباب العالي قبولهُ عليها . فافهم هذا الكلام الدول الاربع ثم ان الكونت نسلرود شرح التغييرات التي طلبها الباب العالي وبيّن اهميتها وقال ان روسيا لا يمكنها ان تقبل بها مطلقاً وانها انما قبلت اللائحة الاولى لانها موافقة للمطالب التي طلبها البرنس منشيكوف تمام الموافقة

فمرت ثلاثة اشهر افرغ فيها رجال السياسة جعبة دهائهم على غير طائل . وانقلبت الوزارة حينئذٍ في انكلترا فجاء لورد بامرستون رجل الحرب بدل لورد ابردين رجل السلم واغتاظ

نبوليون من الفشل الذي اصابهُ لكنهُ لم يكن مستعدًّا للحرب وكانت النمسا اكثر استعدادًا منهُ وحاولت هي وبروسيا ان تقنعا الباب العالي ليقبل السود الاربعة التي رفضتها اولاً واكَّدتا لهُ ان مقاصد روسيا سلمية كلها لكن انكلترا وفرنسا لم تشاركاهما في ذلك كأنَّ يداً خفية كانت فيهما تدفعهما الى الحرب

وثارت الخواطر في الاستانة واجتمع السفطا امام الباب العالي وطلبوا من مجلس الوكلاء ان يسرع في اعلان الحرب على الروس . وجمع السلطان مجلس الوكلاء في ٢٤ سبتمبر في سراي چراغان فنظروا في لائحة الدول ورفضوها وامر ان يجتمع المجلس الاعلى في اليوم الثاني في الباب العالي فاجتمع فيهِ ١٦٢ من نخبة رجال الدولة وبحثوا وتذاكروا طويلاً فاقرَّ ١٦ منهم على الحرب اما السلطان فتوقف ثلاثة ايام وفي التاسع والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٥٣ صدرت ارادتهُ مصدقة على قرار المجلس الاعلى وارسلت الى القائد العام في الروملي وفي الثامن من اكتوبر طلب المشير عمر باشا من الجنرال كورتشاكوف ان يخرج من الاملاك العثمانية في خمسة عشر يوماً واستدعى السلطان العمارة الانكليزية والعمارة الفرنسوية من خليج بيكا فعبرتا الدردنيل ومرتا امام الاستانة ورستا في البسفور الاَّ ان حرب القرم لم تبتدئ حينئذٍ بل تأخرت اياماً وسيأتي الكلام عليها وعلى نتائجها

مستقبل الزنوج

لما نشرنا ما خلصهُ حضرة ملامه افندي موسى من روايات ولس وعقَّبنا عليهِ ولاسيما على ما قالهُ عن منع تناسل الزنوج قلنا « ان هذه الامور لا يمكن الحكم فيها بمجرَّد الرأي والاقيسة العقلية بل لا بدَّ فيها من استقراء احوال الامم وتأثير هذا الامر او ذاك فيها » وقلنا قبل ذلك « كم من اسود يفوق البيض في آدابهِ واخلاقهِ حتى في الولايات المتحدة »

لما قلنا هذا القول وذاك كنا نرى بعين الخيال بعض السود الذين عرفناهم وهم من اهل العلم والفضل او الذين قرأنا عنهم وهم من نوابغ الرجال في كل عصر . فنجد في ليل السود المدلهم بارقة امل واشعة فجر تنبئ ان شمس العمران قد تطلع على ربوعهم كما طلعت على غيرها . وقد قرأنا الآن مقالة لاكبر رحالة افريقي وهو السر هنري جستن الذي يعدهُ ثقةً في كل المسائل الافريقية فرأيتا فيها ادلة كثيرة على تأييد ما ذكرناهُ قال

لا يمرُّ شهر الاَّ وتنشر مقالات كثيرة في مدح الزنوج او ذمهم وفي التهجُّم عليهم او